مسرح الطليعة الفرنسي

بقلم: رولان بارت

ترجمة: رشيد بنانيي

ماهي الطليعة ؟ ان مفهومها اساسا نسبي وملتبس : فكل اثر يحمل قطيعة مع ماسبقه ، تهيأ له في وقته أن يكون عملا طليعيا ولو كنا ننظر اليه في عصرنا على انه متجاوز ، ربما كانت هذه حالة مسرحية هرناني مثلا Hernani . ذلك انه يكفي بالنسبة لاثر ادبي ان يقاطع بطريقة عنيفة التقليد الادبي السائد في عصرنا وان يحمل في اسلوبه نفس التحدي لكي يكون عملا طليعيا ، ولكن يكفي ايضا ان يلحقه التقليد الادبي وان يضمه اليه عن طريق مرونة تصيبه حتى يصبح هذا العمل الطليعي كلاسيكيا ، بل وربما متجاوزا .

واذا كانت **الطليعة ظاهرة منتظمة ، فانها ليست بالضرورة ابدية الوجود او ثابتة :** فقد وجدت فترات زمنية لم تعرف حركة طليعية ، وربما سيوجد ذات يوم فن متحرر في آن واحد من التحدي ومن الاكاديمية . الا انه يظهر انه لكي توجد حركة طليعية فعلى المجتمع ان يوفر **شرطين تاريخيين الاول :** فن سائد ذو طبيعة محافظة الى حد ما ، **والثاني :** نظام ذو بنية ليبرالية ؛ يجب بمعنى آخر ان يجد التحدي في نفس الوقت مبرره وحريته . ولهذا نجد الطليعية مستحيلة في المجتمعات التي تكون فيها الآداب خاضعة لرقابة عامة (مثلا في نظام من نمطه لويس الرابع عشر) ؛ وكذلك في المجتمعات التي يكون الفن فيها حرا تماما ، لا يكون للطليعية مبرر ؛ وهذا التحرر الاخير هو في جملته تصور طوباوي ، لكن تحررات جزئية يمكن ان توجد : (فرسمنا المعاصر هو عامة متحرر حتى انه لم تعد تعرف له طليعة)(٢) .

فالطليعية اذن مرتبطة وظيفيا بوجود محافظة سائدة دون ان تكون هذه المحافظة مستبدة ؛ وهذا سبب ازدهارها بسهولة في المجتمع البورجوازي الليبرالي في اوائل القرن العشرين.

ولكن الطليعية وان كانت متحدية فانها ليست هدامة بتاتا : فالكاتب الطليعي يوجد في وضع متناقض ، والمفارقة في وصفه تربكه وتحده : ذلك انه من جهة يرفض بشدة الجماليات الكلاسيكية لطبقته التي ينتمي اليها ، ولكنه من جهة اخرى في حاجة الى هذه الطبقة لتكون جمهوره : ففي هذا المجتمع البورجوازي مثلا ، يرفض الكاتب الطليعي القيم البورجوازية ؛ ولكن هذا الرفض الذي هو مضمون انتاجه، ليس هناك الا الجمهور البورجوازي لاستهلاكه : فرغم المظاهر اذن تبقى الطليعية خلافا عائليا . ومثلما هو الحال في كل الخلافات العائلية ، يبقى الخلاف متضمنا تحديا محدودا : فبين الكاتب والجمهور يوجد نزاع (كثير من المتفرجين المحنقين كانوا يغادرون عروض « في انتظار غودو ») ، ولكن هذا النزاع ان لم يكن بسيطا (هامشيا) فانه على الاقل مكبوت : ان **الفن الطليعي (ولاسيما المسرح) فن قلق .**

وليس هناك مايصور هشاشة الطليعية افضل من المسرح الفرنسي : فقبل حوالي عشر سنوات كانت كتلة من الكتابات والاخراجات التي كانت تزعج الجمهور والنقد التقليدي بما فيه الكفاية ، لكي تكون حقيقة مسرحا لاشك في طليعيته (هذا هو المسرح الذي سأتناوله الآن) ؛ واليوم نجد ان الكتاب قد غيروا طرقهم وسلموا في مسرح التحدي : فمسرح الطليعة الآن هو بطريقة مفارقة قد اصبح مسرحا للتاريخ ، وعند الكتابة عنه فاننا نطيب ذكره فقط ؛ وبالجملة فان ما اتحدث عنه هنا هو اسطورة الطليعة . لذلك لن اتردد في الاقتصار على اسمائها الاكثر شهرة (اداموف ، بيكيت ، يونسكو) مضحيا بكتاب آخرين كانوا هم ايضا ، ولكن بشهرة اقل ، كتابا مسرحيين طليعيين (أوديبرتي ، غيلديرود ، بيشيت ، تارديو ، فرتيي ، ج. شحادة ، جينيه) .

اولا (وهذا ربما كان الاكثر اهمية) **اين كان يقدم هذا المسرح ؟** لقد كان يقدم اساسا في مسارح صغيرة جدا ؛ القاعات الطليعية الموجودة في الضفة اليسرى لنهر السين لم تكن تسع بتاتا اكثر من مائة (مائتي مقعد ؛ وهذا الرقم في الاقتصاديات الحالية لمسرحنا ليس مربحا ؛ وهذا يعني انه حتى في حالة النجاح التام (وهذا لايحدث بتاتا للانتاجات الطليعية) يبقى هذا المسرح محكوما عليه بالموت الاقتصادي ؛ قاعاته اغلبها اندثرت الآن : فقد تحول بعضها الى مرائب وبعضها الى قاعات سينمائية . والتي لازالت صامدة منها، حكم عليها مردودها الضئيل بأن تصبح ذات فقر حقيقي في الاسلوب .

من كان جمهور هذا المسرح ؟ لقد كان في اغلبه جمهورا مثقفا ، بمعنى انه كان اذا جاز التعبير بشكل طبقة مغلقة ، صادرة عن البورجوازية ، لكنها تقبل ان تحتج ضدها ؛ وجمهور الطليعة هذا لم يكن متسيسا : لقد كان الامر يتعلق فقط بهدم جمالي (استتيكي) بل ربما اخلاقي (عند جينيه على سبيل المثال)، دون ان يكون ذلك ثوريا ابدا . ونتج عن هذا ان اعداء هذا المسرح لم يبن عداؤهم سوى على اسباب اخلاقية ، وحالات نفسية ؛ فالنقد المهم، نقد الصحف الجدية ، كثيرا ما رفض الطليعة بحدة ، بل بغضب ، ولكن ذلك الموقف كان مؤقتا ؛ لقد كان فيه اعاقة سببت بعض التاخير، ولكنها لم تضع امام الطليعة سدودا محطمة . الا ان هذا النقد بامتلاكه لقوة اقتصادية **(كان يقال ان نقدا جيدا في جريدة بورجوازية كبيرة يساوي في الدعاية هو الي المليون من الفرنكات)**